أثـــر
معاملة الرَّسُول ﷺ
في نشر الدِّين الاسلامي

المؤلف

د / يحيى بن عبد الله البكري الشهري

عضو مجلس إدارة الجمعية

والأستاذ المشارك بجامعة الملك خالد

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

ح الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها ، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشهري ، يحيى بن عبد الله البكري
أثر معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم في نشر الدين الإسلامي . / يحيى بن عبد الله البكري الشهري – ط٢ . – الرياض ، ١٤٢٩هـ
١١٢ ص ، ١٢ × ١٧سم
ردمك : ٥ - ٥٩٥ - ٥٩ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١- الأخلاق الإسلامية ٢- السيرة النبوية أ - العنوان
ديوي ٢١٢،٢ ١٤٢٩/٩٩١

رقم الإيداع : ١٤٢٩/٩٩١
ردمك : ٥ - ٥٩٥ - ٥٩ – ٩٩٦٠ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ

www.islamic-invitation.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فيسر الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها، أن تقدم هذا النتاج العلمي لفضيلة الشيخ الدكتور/ يحيى بن عبد الله البكري الشهري، عضو مجلس إدارة الجمعية، الذي أوضح فيه أخلاق رسول الله ﷺ وصفاته، التي استجلبت به القلوب؛ فهداها الله عز وجل إلى الحق والإيمان، وكان ﷺ في معاملته للصغير والكبير، والذكر والأنثى، والمؤمن والكافر، والحر والعبد، على أكمل الأخلاق وأتمها محققاً ما وصفه الله عز وجل به في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

فحري بكل داعٍ، بل بكل مؤمن أن يتأسى به ﷺ في عبادته ودعوته؛ ليكون لذلك أثر على حسن دعوته وتبليغ دين الله إلى الناس في أصقاع المعمورة.

نسأل الله عز وجل للمؤلف التوفيق والسداد وحسن القصد والإخلاص، كما نسأله جل وعلى أن يوفق الجميع لإتباع السنة ومجانبة البدعة والسير على منهج سلف هذه الأمة.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

رئيس مجلس الإدارة
د.عبد العزيز بن محمد السعيد

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده، و نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ التعمُّق في دراسة السِّيرة النبوية، وإبراز جوانب الشخصية العظيمة للنبي ﷺ، والاستفادة من مواطن العبر والدُّروس فيها، لجديرة أن تحيي في الأمَّة روح العزَّة والسُّؤدد، التي افتقدتها منذ قرون.

فشخصيته ﷺ الفذَّة تأسر الألباب؛ بما أوتي من جمال الصُّورة، وتمام الخلقة وحُسن الهيئة، وما جُبل عليه من حسن الخُلُق، والرِّفق في المعاملة، والعدل في الغضب والرِّضا، والحلم والأناة.. كل هذا أثر أثرًا بالغًا في إقبال الناس على دعوته، والسَّماع له، ولا غرو فقد زكَّاه الله ﷻ من فوق سبع سماوات، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وهذه شهادةٌ له بأنه على أكمل الأخلاق وأتمِّها وأرفعها وأفضلها، بحيث لا يُدانى فيها بحالٍ من الأحوال.

وهذا البحث على قصره يُلقي الضوء على حسن معاملته للنَّاس، وما أوتيه من أخلاق شريفة ، وأثر ذلك في نشر دين الإسلام ، وقد حرصت فيه على الاعتماد على المصادر الأصلية الصَّحيحة من كتب السنَّة النبوية؛ لإبراز مظاهر شخصيته، وذلك من خلال الأحاديث والوقائع الصَّحيحة، وهذا ما أخلت به كثيرٌ من الكتابات في هذا المجال، فلعله يبرز جانبًا من جوانب خدمة السِّيرة النَّبوية من خلال كتب السُّنة الصَّحيحة ، وقد أتجوز يسيرًا بذكر بعض وقائع السِّيرة المشهورة المتداولة عند أهل السِّير.

واقتضى الحال أن تكون خِطَّته وَفق التالي:

أولاً - تمهيد: تعرضت فيه لطرفٍ من أخلاقه الشَّريفة وبعثته على وجه الإجمال.

ثانيًا - الفصل الأول: أخلاقه ﷺ الشَّريفة وأثرها في نشر دعوة الإسلام.

- المبحث الأول: رأفته ورحمته وشفقته ﷺ .
- المبحث الثاني: تواضعه ولين جانبه ﷺ.
- المبحث الثالث: كرمه وسخاؤه وجوده ﷺ.

ثالثًا - الفصل الثاني: شخصيته ﷺ القيادية وأثرها في نشر دعوة الإسلام.

- المبحث الأول: شجاعته وقوة بأسه ﷺ.
- المبحث الثاني: عفوه عند المقدرة ﷺ.
- المبحث الثالث: بره ووفاؤه بالعهود ﷺ.

- **خاتمة:** ذكرت فيها أهم الدروس والعبر المستفادة من أخلاقه الشريفه ﷺ .. وكيف نوظفها في نشر هذا الدين العظيم.

هذا وقد سلكت فيه الاختصار ؛ مُراعاةً للشُّروط الموضوعة له ، مع التركيز على توازن خطته وإحاطتها بمجمل سجاياه ﷺ .

ولا يسعني إلا أن أتقدَّم بالشكر للجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها لتبنيها طباعة هذا الكتاب وحرصها على نشر السنة، ودعمها للباحثين.

المؤلف
د. يحيى بن عبد الله البكري الشهري
عضو مجلس إدارة الجمعية
والأستاذ المشارك بجامعة الملك خالد

تمهيد

محمد ﷺ هو دعوة أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقوله: ﴿فِيهِمْ﴾ عائدٌ على ذريَّة إسماعيل عليه السلام.. كما أنَّه بُشرى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام حين قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] .. ورؤيا أمُّه آمنة وفي هذا يقول ﷺ: «إنِّي عند الله مكتوبٌ بخاتم النبيين وإن آدم لَمُنجدلٌ في طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني: أنَّه خرج منها نورٌ أضاءت لها منه قصور الشَّام»(١).

عاش بمكَّة في بيت شرفٍ وعزٍّ، في بيت عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (١٤: ٣١٣) ذكر كتبة الله (جل وعلا) عنده محمدًا ﷺ خاتم النبيين. برقم (٦٤٠٤).

كلاب.. فلم تُحفظ له في جاهليته صبوة، ولا زلة، عاش موفور الجانب، طيب الأخلاق، شريف الأعراق، لم يتلطخ بدنس الجاهلية، فلم يسجد للأصنام، أو يستقسم بالأزلام، أو يجالس أهل العبث والمجون، أوأهل اللهو والفجور، ولم يُسلط الله عليه الشَّيطان الرجيم، بل كفاه الله وحفظه وحماه.

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممتُ بقبيحٍ ممَّا يهمُّ به أهل الجاهليَّة إلا مرَّتين من الدَّهر، كلتاهُما عصمني الله منهُما، قلتُ ليلةً لفتى كان معي من قريش بأعلى مكَّة في غنم لأهلنا نرعاها: أبصر لي غنمي حتَّى أسمُر هذه اللَّيلة بمكَّة كما يسمُرُ الفتيان، قال: نعم.

فخرجتُ، فلمَّا جئتُ أدنى دار من دُور مكَّة سمعتُ غناءً وصوتَ دُفوفٍ ومزاميرَ، قلت: ما هذا؟

قالوا: فلانٌ تزوَّج فُلانةَ لرجُل من قُريش تزوَّج امرأةً من قُريش، فلهوتُ بذلك الغناءِ، وبذلك الصَّوت حتَّى غلبتني عيني، فنمتُ، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس فرجعتُ إلى صاحبي.

فقال: ما فعلت؟ فأخبرتُهُ، ثمَّ فعلتُ ليلةً أُخرى مثل ذلك، فخرجتُ فسمعتُ مثل ذلك، فقيل لي: مثل ما قيل لي، فسمعتُ كما سمعت، حتَّى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمسِ ثمَّ، رجعتُ إلى صاحبي، فقال لي: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا.

قال رسول الله ﷺ: «فوالله ما هممتُ بعدهُما بسُوءٍ ممَّا يعملُهُ أهلُ الجاهليَّة حتَّى أكرمني الله بنُبوَّته»[1].

ولعلَّ الحكمةُ من رعيه الغنم، إعداده لسياسة البشر بالرِّفق والرَّحمة واللِّين؛ لأنَّ الغنم وهي الضَّأن والمعز أضعف من الإبل والبقر، وأحوج إلى الرِّفق، والإنسان أضعف منها، ولذا يحتاج إلى سياسة الرِّفق واللين، وعدم الشِّدة والعنف[2].

وكانت هذه سُنة اللَّه في جميع أنبيائه، فقد قال ﷺ: «ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم، فقال

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (١٤: ١٦٩) ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه قبل أن يوحى إليه. برقم (٦٢٧٢).

(٢) هذا الحبيب لأبي بكر الجزائري حفظه الله (ص٦٠).

أصحابه: وأنت ؟! فقال: نعم.. كنت أرعاها على قراريط لأهل مكّة» (١).

وكان ﷺ من أعظم قريشٍ جاهًا، وأعرقهم حسبًا ونسبًا، وأعفهم وأطهرهم سلوكًا ومنهجًا، كان فيهم مستودعٌ للأمانات، ومرجع في المحاكمات، وثمال اليتامى والأرامل والمساكين.. عُرف بين قومه بالصَّدق والأمانة، حتى عُرف بالأمين، ولمّا بلغ الأربعين من عُمره أتته مبشرات النبوة، وانبثقت الدعوة المحمدية من غار حراء، وبدأت بكلمة: ﴿اقْرَأْ﴾ تلكمُ الكلمة القليلة في مبناها، العظيمة في معناها، التي أذنت ببداية نور العلم، وانطفاء نار الجهل.

وقد كان لهذه البعثة العظيمة إرهاصاتٌ كثيرةٌ، منها ما روته أمُّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، قالت: أوَّلُ ما بُدئ به رسُول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّالحةُ في النَّوم، فكان لا يرى رُؤيا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢: ٧٨٩) في كتاب الإجارة/ باب رعي الغنم على قراريط. برقم (٢١٤٣).

إلا جاءت مثل فلق الصُّبح، ثمَّ حُبِّب إليه الخلاءُ، وكان يخلُو بغار حراءٍ فيتحنَّثُ فيه (وهو التعبُّد) الليالي ذواتِ العددِ قبل أن ينزعَ إلى أهله، ويتزوَّدُ لذلك، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّدُ لمثلها، حتَّى جاءهُ الحقُّ وهو في غار حراءٍ، فجاءهُ الملكُ فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطَّني حتَّى بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسلني»، فقال: اقرأ، قلت: «ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثَّانية حتَّى بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثَّالثة ثمَّ أرسلني»، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١ ـ ٣].

فرجعَ بها رسُول الله ﷺ يرجُفُ فؤادُهُ، فدخل على خديجة بنت خُويلد (رضي الله عنها)، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني» فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوعُ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيتُ على نفسي»، فقالت خديجة: كلا والله ما يُخزيكَ الله أبدًا؛ إنَّك لتصِلُ الرَّحِمَ، وتحْمِلُ الكلَّ، وتُكسِبُ المعدُومَ، وتَقْري الضَّيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ، فانطلقت

به خديجةُ حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عمِّ خديجة، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانيَّ، فيكتُب من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتُبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا النامُوسُ الّذي نزَّل الله على مُوسى، يا ليتني فيها جذعٌ، ليتني أكونُ حيًّا إذ يُخرجُكَ قومُكَ، فقال رسول الله ﷺ: «أو مُخرجيَّ هم»، قال: نعم؛ لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يُدركني يومُكَ أنصُرْكَ نصرًا مُؤزَّرًا.

ثمَّ لم ينشب ورقةُ أن تُوفِّي وفتر الوحْيُ [1].

بعث ﷺ في مكّة (أمُّ القرى)، وكان أهلها أوسط العرب حسبًا، وأشرفهم نسبًا، وأعزُّهم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١: ٤) في كتاب بدء الوحي / باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وقول الله جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ برقم (٣).

جانبًا، هم حماة البيت الحرام وسدنته، فشرَّف الله من شرَّف منهم بالإسلام، وبالدَّعوة إليه حتى كثر المسلمون بمكة المكرمة، فلمَّا تعرَّضوا للأذى من كفَّار قريش، أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة، ثم هاجر من بقي منهم بعد ذلك إلى يثرب وفيهم رسول الله ﷺ.. فجمع الله به بين الأوس والخزرج على ما كان بينهم من حروبٍ وشحناء، فنالوا شرف الدُّنيا وسعادة الآخرة.. ثم التحقت بهم قبائل العرب واحدةً تلو الأُخرى، حتى عمت الدعوة المحمَّدية كلَّ العرب، فشرفوا بحمل هذا الدين العظيم؛ والدَّعوة إليه والقتال في سبيل نشره بين الأمم.

قال ابن تيمية : «وسبب هذا الفضل ما اختصُّوا به في عقولهم وألسنتهم ، وأخلاقهم وأعمالهم، والعرب هم أفهم من غيرهم، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتمُّ الألسنة بيانًا، وتمييزًا للمعاني جمعًا وفرقًا، وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم، فهم أقربُ للسخاء والحلم ، والشجاعة والوفاء ، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة.

لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلةً للخير، مُعطَّلةً عن فعلهِ، فلمَّا بعث الله محمدًا ﷺ بالهُدى، وأخذوا ذلك الهُدى العظيم بتلك الفطر الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم»[١].

ومع هذه الأخلاق العظيمة التي كان العرب يتميزون بها في جاهليتهم، على غيرهم من الأمم في ذلك العصر، فقد بهرتهم أخلاق النبي ﷺ وحسن معاملته، وشجاعته وقوة قيادته، وصدقه وعدله ووفاؤه مما جعلهم يدخلون في دين الله أفواجًا.. وقد عبَّر عن ذلك عبد الله بن سلام ﷺ أبلغ تعبير حين قال: لما ورد رسول الله ﷺ المدينة أنجفل النَّاسُ إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ ، قال: فجئتُ في النَّاس لأنظر فلمَّا تبينتُ وجههُ عرفتُ أنَّ وجهَهُ ليس بوجه كذَّاب[٢].

وعن الحارث بن عمرو السهمي، قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بمنى أو بعرفات، وقد أطاف به

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١: ٣٩٦ ـ ٣٩٧) بتصرف.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣: ١٤/ برقم ٤٢٨٣).

النَّاس، قال: فتجيءُ الأعراب، فإذا رأوا وجهه؛ قالوا: هذا وجهٌ مباركٌ[١].

وهذه الشَّهادة تدلُّ على أنَّ ما جُبل عليه من حسن الصُّورة وجمال الهيئة، وشريف المنزلة، جعله مُنزَّهًا عن الدَّنايا، حتى أن الأعراب لفراستهم عرفوا بركته بمجرد نظرهم لوجهه الشَّريف، وفي قول عبدالله بن سلام اليهودي (فعرفت أنَّ وجهه ليس بوجه كذَّاب)، والكذب مما تأباه شيم العرب. وفي مسائل ملك الرُّوم لأبي سفيان مصداق ذلك حينما قال له: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، ثم بيَّن له سبب سؤاله. فقال: وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على النَّاس ويكذب على الله[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢: ١٤٤) في كتاب الحج/ باب في المواقيت برقم (١٧٤٢). حسنه الألباني كما في صحيح أبي سنن داود (١٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١: ٧ - ١٠) في كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وقول الله جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ برقم (٧) بطوله. ومسلم في صحيحه (٣: ١٣٩٣) في كتاب الجهاد والسير/ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام برقم (١٧٧٣).

وكان لهذا أكبر الأثر في إقبال النَّاس على دعوته، والإيمان بما بعث به، لمعرفتهم بصدقه وأمانته، ولما أذن الله بانبثاق نور الرِّسالة، ونزل وحي السَّماء، على هذه الأمة العربية، كان أحقَّ النَّاس بذلك محمدًا ﷺ؛ لكريم نسبه، وكمال خُلُقه، وطهارته وعفته، ولطيب أصله، قال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانةَ من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [1].

وفي الفصلين التاليين نتعرض لحسن معاملته في سلمه وحربه، وأثر ذلك في انتشار دعوة الإسلام.. على أنَّ المجال أوسع من أن نُحيط به في هذا العُجالة.. ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق !!.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٤: ١٧٨٢) كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة برقم (٢٢٧٦).

الفصل الأول

أخلاقه ﷺ وأثرها في نشر دعوة الإسلام

المبحث الأول
رأفته ورحمته وشفقته

كان الرسول ﷺ من أرأف النَّاس وأرحمهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان لهذا الخلُق الرَّفيع أكبر الأثر في الإقبال على الدِّين الإسلامي، وذلك أنَّه ﷺ كان بعيدًا عن أساليب العنف والشِّدة والغلظة، فاستطاع بحسن عرضه للدين الإسلامي، وكمال خلقه وصدقه، أن يجد لدعوته مجالاً بين بعض عقلاء رجالات قريش، وأخذ خبر بعثته يتسلل إلى بيوت مكَّة شيئًا فشيئًا، حتَّى غزا بيوت كبار كفَّار مكَّة؛ فاتَّهمه حينها كفَّار مكَّة بأنَّه ساحر: يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته [1].

(١) سيرة ابن هشام (٢: ١٠٥ ـ ١٠٦).

ونلمح في سيرته الشريفة مواقفَ معبِّرةً، تدلُّ على كمال شفقته ورحمته بأمته، نجملها في الصُّور التالية:

الصورة الأولى: شفقته ورحمته بعمه أبي طالب.

كان عمه أبو طالب من أشدِّ مناصري دعوته، ولأجل هذا حرص على إسلامه، لكن سبق في علم الله أنه يموت كافرًا.. فعن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ

كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقد أنزل الله تعالى في شأن عمه أبي طالب مخاطبًا لرسوله الكريم ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[1] [القصص: ٥٦].

وفي رواية: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ لعمه عند الموت: قل لا إله إلا الله أشهدُ لك بها يوم القيامة، فأبى فأنزل الله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾[2].

ومع هذا فقد نفعته مواقفه هذه مع النبي ﷺ، فقد قال العباس بن عبد المطلب ﷺ للنبي ﷺ: ما أغنيتَ عن عمِّك؟ فإنه كان يحوطك ويغضبُ لك، قال: «هو في ضحضاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١: ٤٥٧) في كتاب الجنائز / باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله برقم (١٢٩٤)، ومسلم في صحيحه (١: ٥٤) في كتاب الإيمان / باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة ونسخ جواز الاستغفار للمشركين والدليل على أن من مات على الشرك فهو في أصحاب الجحيم ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل برقم (٢٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١: ٥٤) في كتاب الإيمان / باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ... (٢٥).

الدَّرك الأسفل من النَّار»[1].. والمعنى أنه ﷺ شفع له عند ربِّه حتَّى خفف له كما ورد في بعض الرِّوايات.

الصورة الثانية: شفقته ورحمته بابنته زينب وزوجها أبي العاص.

فقد كان أبو العاص بن الرَّبيع ختن النبي ﷺ على ابنته زينب، وكان زوجه بها قبل البعثة، وبقي أبو العاص على شركه وأسلمت زينب لكنها بقيت معه بمكة، فلمَّا كان يوم بدر، خرج مع المشركين فوقع في الأسر، فبعثت زينب في فدائه بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها، فلمَّا رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقَّةً شديدة، وقال: «إن رأيتُم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها مالها فافعلوا». فقالوا: نعم يا رسول الله! وأطلقوه وردُّوا عليها الذي لها، وتجلَّى لنا في هذا الموقف الشَّريف رأفته ورحمته بابنته وبزوجها رغم كفره، وقد كان لهذا الموقف أبلغ الأثر، فقد انتهى بإسلام أبي العاص بعد ذلك!!.. حيث تكرر هذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١٤٠٨) في كتاب فضائل الصحابة/ باب قصة أبي طالب برقم (٣٦٧٠).

الموقف المؤثر من زينب، ومن النبي ﷺ في شأن أبي الربيع!!.. فقد خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشَّام وكان رجلاً مأمونًا بمالٍ له وأموال لرجال من قريشٍ أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه وأعجزهم هاربًا فلمَّا قدمت السَّرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ ، فاستجار بها فأجارته وجاء في طلب ماله، فلمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى الصُّبح فكبَّر وكبر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء، أيها النَّاس إني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع، قال: فلمَّا سلم رسول الله ﷺ من الصَّلاة، أقبل على الناس، فقال: «أيُّها النَّاس هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم، قال: «والذي نفس محمدٍ بيده ما علمتُ بشيء من ذلك» حتى سمعت ما سمعت: «إنَّه يُجير على المسلمين أدناهم». ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته، فقال: «أي بُنية أكرمي مثواه، ولا يخلُصنَّ إليك فإنك لا تحلّين له»[1].

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٧: ١٨٥/ برقم ١٣٨٣٩).

ثم أنه ﷺ بعث إلى السَّرية الذين أصابوا مال أبي العاص، فقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتردُّوا عليه الذي له، فإنَّا نُحبُّ ذلك وإن أبيتم، فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحقُّ به».

فقالوا: يا رسول الله بل نردُّه عليه، فردُّوه عليه، حتى إنَّ الرجل ليأتي بالدلو[١] ويأتي الرجل بالشنة[٢] والإداوة[٣]، حتى إنَّ أحدهم ليأتي بالشظاظ[٤] حتى ردُّوا عليه ماله بأسره، لا يفقد منه شيئًا.

فأخذه وانطلق به إلى مكة وأعاد الأموال إلى أهلها، ثم قال يا معشر قريش: هل بقي لأحد منكم

---

(١) الدلو: معروف هي التي يستقى بها، وقد تذكر والتأنيث أكثر. انظر تاج العروس (١٩: ٤١١).

(٢) الشنَّة: واحدها شنٌّ وشنَّة، والجمع شنان، وهي: الأسقية الخلِقَة، وهي أشد تبريدًا للماء من الجدد. انظر النهاية لابن الأثير (ص٤٩٤).

(٣) الإداوة: بالكسر إناءٌ صغيرٌ من جلد يُتخذ للماء كالسَّطيحة ونحوها، وجمعها أداوى. انظر النهاية لابن الأثير (ص٣٠).

(٤) الشظاظ: خشبة محددة الطرف تدخل في عروتي الجوالقين لتجمع بينهما عند حملها على البعير. والجمع أشظة. انظر النهاية لابن الأثير (ص٤٨٠).

عندي مال لم يأخذه قالوا: لا فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّا كريمًا، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلاَّ تخوُّفِي أن تظنُّوا أنِّي أردت أن آكل أموالكم، فلمَّا أداها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت[1].. وإن الإنسان ليتملكه العجب من هذه الأخلاق عند هؤلاء الجاهليين، وأعظم من ذلك أخلاق المسلمين وعلى رأسهم رسول الله ﷺ في التعامل مع أعدائه كفَّار قريش.. فلقد كانت هذه المواقف الشَّريفة منه ﷺ سببًا لإسلام هذا الرجل.

الصورة الثالثة: شفقته ورحمته بخادمه الغلام اليهودي.

نلمح في هذا الباب هذا المثال الرائع من تواضعه ﷺ ورحمته بهذا الغلام، ودعوته له للإسلام وشفقته عليه من أن يموت كافرًا.. فعن أنس ﷺ قال: كان غلامٌ يهوديٌّ يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النَّبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: أسلم، فنظر إلى

(١) سيرة ابن هشام (٣: ٢٠٩ ـ ٢١٠).

أبيه، وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسْلَمَ فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[1].. وهذا يدلُّ على رحمة النبي ﷺ ورأفته بالنَّاس على وجه العموم، حيث استبشر بإسلام هذا الغلام.. وإن تعجب فاعجب من موقف والده هذا!!.

الصورة الرابعة: شفقته ورحمته بقومه قريش.

كان ﷺ يأسى على قومه، ويأسف أشدَّ الأسف عليهم، قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وكان يخشى أن يموتوا على الكفر، وتتجلى رأفته ورحمته في أبهى صورها في دعوته لهم، وإصراره على إنقاذهم من النار، مع ما جابهوه به من الأذى والاستهزاء والسُّخرية.. فعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١: ٤٥٥) في كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي ومات، هل يُصلى عليه، وهل يُعرض على الصبي الإسلام برقم (١٢٩٠).

صعد النبي ﷺ على الصَّفا، فجعل يُنادي: «يا بني فهر! يا بني عدي!» ..لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرَّجل إذا لم يستطع أن يَخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تُريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: «فإنِّي نذير لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ» فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[1] [المسد: ١ ـ ٢].

ومن مواقفه معهم ما رواه عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته: أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على عبد يا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤: ١٨٨٧) في كتاب التفسير/ باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ واخفض جناحك: ألن جانبك برقم (٤٤٩٢).

ليل بن عبد كلال، فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إنَّ الله ﷻ قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[1].

وفي هذا الموقف الشَّريف منه ﷺ دليلٌ على إرادته الخير لهم، ورحمته وشفقته بهم، وتحقق له ذلك.. فقد أسلم عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١١٨٠) في كتاب بدء الخلق برقم (٣٠٥٩)، ومسلم في صحيحه (٣: ١٤٢٠) باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين برقم (١٧٩٥) واللفظ له.

وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد وغيرهم من أبناء صناديد قريش الذين ناصبوا النبي ﷺ العداء.

واستمرَّ عليه الصَّلاة والسَّلام في دعوته ولم ييأس، مشمِّرًا لدعوته صادعًا بالحقِّ، صابرًا مُثابرًا، وأحزنه عدم استجابة كثيرٍ منهم فأنزل الله عليه: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣].

قال ابن كثير: « وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفَّار كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ﴾. [فاطر: ٨].

وكقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ ﴾ الآية [الكهف: ٦].

قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعطية والضحَّاك والحسن وغيرهم: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ ﴾: أي قاتل نفسك، قال الشاعر:

ألا أيهذا الباخع الحزن نفسه

لشيءٍ نحته عن يديه المقادر»[1]

(١) تفسير القرآن العظيم (٣: ٣٣١).

وإنما سلاه الله ﷻ بهذا؛ لأنه كان شديد الحزن والأسف على قومه، يحبُّ إسلامهم، ويخشى عليهم العذاب الأليم، وقد اقتضت حكمته (تعالى) أن يكون الإيمان مبنيًّا على الاختيار، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وهذا موقفٌ عظيمٌ منه ﷺ فمع ما ناله منهم لم ينتقم وصبر وتحمل الأذى، في سبيل أن يسلموا.. وكان كذلك فقد دخلوا بعد فتح مكة المكرمة في دين الله أفواجًا كما قال الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١- ٣]

الصورة الخامسة: رحمته وشفقته على أمته عمومًا.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فرفع يديه وقال: اللهُمَّ أمَّتي أمَّتي، وبكى فقال الله ﷻ: يا جبريل اذهب إلى محمد (وربُّك أعلم) فسله ما يُبكيك فأتاه جبريل ﷺ، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال (وهو أعلم) فقال الله: يا جبريلُ اذهب إلى محمد فقل: إنَّا سنُرضيكَ في أمَّتك ولا نسُوءك[1].. ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥].

ولعلَّ من أبلغ مظاهر شفقته ورحمته ﷺ بأمته موقفه العظيم في عرصات القيامة، في يوم يشيب لهوله الولدان، عندما يشفع الشفاعة العُظمى، كما في حديث أنس بن مالك الطويل وفيه: «فأنطلقُ فأستأذنُ على ربِّي فيُؤذن لي، فأقومُ بين يديه، فأحمدُهُ بمحامِدَ لا أقدر عليه الآن، يُلهمُنيه اللهُ، ثمَّ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١: ١٩١) في كتاب الإيمان/ باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم برقم (٢٠٢).

أخِرُّ له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك وسل تُعطه، واشفع تُشفَّع، فأقول: ربِّ أمَّتي أمَّتي، فيقالُ: انطلق فمن كان في قلبه مثقالُ حبَّةٍ من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثمَّ أرجع إلى ربِّي فأحمده بتلك المحامد، ثمَّ أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك وسل تُعطه واشفع تُشفَّع فأقول: أمَّتي أمَّتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبَّةٍ من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثمَّ أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثمَّ أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع لك، وسل تُعطه واشفع تشفَّع، فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبَّةٍ من خردلٍ من إيمان، فأخرجه من النَّار فأنطلق فأفعل »[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١: ١٨٢ ـ ١٨٣) في كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (١٩٣).

هذه الصور المشرقة تعطينا جانبًا عظيمًا من جوانب رأفته ورحمته وشفقته على أمته ﷺ ، فها هو يقول ﷺ : «مثلي كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها ، جعل الفراشُ وهذه الدَّواب التي في النَّار يقعن فيها ، وجعل يحجُزُهُنَّ ويغلبنَهُ ، فيتقحَّمنَ[1] فيها ، قال: فذلكم مثلي ومثلُكم، أنا آخِذٌ بحُجَزِكُم عن النَّار، هلمَّ عن النَّار، هلمَّ عن النَّار .. فتغلبُوني تقحَّمون فيها»[2].

وصدق عليه الصلاة والسَّلام، فكم واجهه من أذى قريش، حين ضربوه وسبوه، وأخرجوه من أحب البلاد إليه وما زال يدعوهم ويدعوهم، ويعفو عن مُسيئهم، ويحلم عليهم حتى أنقذ الله به الكثير منهم من النَّار.

---

(١) يتقحَّمن: يقعن فيها . يقال: اقتحم الإنسان الأمر العظيم، وتقحَّمه: إذا رمى نفسه فيه من غير روية وتثبُّت. انظر النهاية (ص٧٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤ : ١٧٨٩) في كتاب الفضائل/ باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغة في تحذيرهم مما يضرهم برقم (٢٢٨٤).

المبحث الثاني
تواضعه ولين جانبه

كان ﷺ متواضعًا، لم يرد الدُّنيا وزينتها، ولو أرادها لكانت له، بل أراد ما عند الله والدار الآخرة، فأناله الله شرف الدُّنيا والآخرة، فاسمه قرين اسم الله ﷻ قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

لا أذكر إلا ذُكرت : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله[1].

وقد كان ابن عباس يحدث: أن الله (تبارك وتعالى) أرسل إلى نبيه ﷺ ملكا من الملائكة ومعه جبريل ، فقال الملك: إنَّ الله يُخيِّرُكَ بين أن تكون عبدًا نبيًّا، وبين أن تكون ملكًا، فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل: كالمستشير، فأشار جبريل بيده : أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ : «بل أكونُ عبدًا نبيًّا».

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده (ص٢٣٣) بسند صحيح.

قال: فما أكل بعد تلك الكلمة طعامًا مُتكئًا[١].

ويمكن أن نضرب أمثلةً على تواضعه بالصور التالية:

الصورة الأولى: من مظاهر تواضعه في دعوته ﷺ.

كان ﷺ يدعو في مكة إلى الإسلام، وكان أكثر من استجاب له ضعفة ومساكين مكّة، حيث كانوا هم أكثر النَّاس له تبعًا، والسبب في ذلك لين جانبه لهم، ورفقه بهم، والصبر على تعليمهم، حتى وقر الإيمان في قلوبهم، فهم أتباع الأنبياء.. وقد ذكر هذا أبو سفيان بن حرب في إجابته لهرقل عندما سأله، فقال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضُعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

ثم بين لهم بعد محاورته جواب ما كان سأله، فقال: سألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم[٢].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٤: ١٧١/ برقم ٦٧٤٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٤).

وهكذا وطَّن ﷺ لدعوته في هذه الطبقة من النَّاس، الذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا.. حيث أمره الله بالجلوس معهم، وامتدحهم بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

عن سعد قال كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (١) [الأنعام: ٥٢].

ولما كان مرَّة مشغولاً بأحد عظماء قريش يدعوه إلى الإسلام، وجاءه ابن أم مكتوم الأعمى،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤: ١٨٧٨) في كتاب الفضائل/ باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. برقم (٢٤١٣).

فأعرض عنه وأقبل على هذا السَّيد فعاتبه الله فيه.. كما روت قصته أمُّ المؤمنين عائشة، قالت: أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، قالت: أتى النبي ﷺ فجعل يقول: يا نبي الله! أرشدني. قالت: وعند النبي ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين فجعل النبي ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر، فقال النبي ﷺ يا فلان: «أترى بما أقول بأسًا» فيقول: لا فنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ (١).

هكذا أدَّبه ربه فأحسن تأديبه، فتواضع ﷺ للنَّاس فأقبلوا على دعوته وآمنوا به، وصدَّقوه وعزَّروه، ونصروه، حتَّى كان الإسلام في سنوات معدودة مسيطرًا على جلِّ جزيرة العرب سلمًا.

الصورة الثانية: عدم تميزه على أصحابه.

من مظاهر تواضعه ﷺ أنه لم يكن يتميز على أصحابه بملبس، ولا مجلس، ولا غير ذلك.. حتى أن

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢: ٢٩٣) ذكر ما يستحب للمرء الإقبال على الضعفاء والقيام بأمورهم وإن كان استعمال مثله موجودا منه في غيرهم. برقم (٥٣٥).

الغريب إذا أتاه لا يعرفه من بين أصحابه.. فهذا ضمام بن ثعلبة دخل على جمله فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لمن كان في المسجد :أيكم محمد والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم. فقالوا: هذا الرجل الأبيض المتكئ[١].

ويبدو أنَّ هذا تكرَّر دائمًا، فرأى الصحابة أن يُظهروا مكانه ﷺ ؛ حتى يُعرف، لئلا يحوجوا كلَّ من لا يعرفه للسؤال عنه ﷺ.. فعن أبي ذر وأبي هريرة قالا: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهري أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى رسول الله ﷺ أن نجعل له مجلسًا يعرفه الغريب إذا أتاه، قال: فبنينا له دُكَّانًا[٢] من طين، فجلس عليه، وكُنَّا نجلس بجنبتيه[٣].

---

(١) خرجه البخاري في صحيحه (١: ٣٥) في كتاب العلم/ باب ما جاء في العلم. برقم (٦٣).

(٢) الدُّكان: الدكة المبنية للجلوس عليها، والنون مختلفٌ فيها، فمنهم من يجعلها أصلاً، ومنهم من يجعلها زائدة. انظر النهاية لابن الأثير (ص٣١٠).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤: ٢٢٥) باب في القدر. برقم (٤٦٩٨). وهو صحيح كما قال الألباني في صحيح أبي داود (٣: ٨٩٠).

ولم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم رؤيةً منه ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لِما يعلمون من كراهيته لذلك[1].

الصورة الثالثة: جلوسه مع الأرملة والمسكين والصغير.

كان الرسول ﷺ يمشي في حاجاتهم ويُساعدهم .. فعن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي ﷺ لا يأنف، ولا يستنكِف، أن يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضي لهما حاجتَهُما[2].

وهو بهذا يضرب لأمَّته أروع الأمثلة في التواضُع ولين الجانب، فهو يقول ﷺ مُرشدًا ومُعلِّمًا: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[3].. فبادر بنفسه ليكون قدوةً للنَّاس، فرفعه الله في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٩٤٦)، والترمذي في سننه (٥: ٩٠) في كتاب الأدب/ باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل. برقم (٢٧٥٤)، وفي الشمائل برقم (٣٢٨). قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٢) أخرجه الدارمي في مسنده (١: ٤٨) باب في تواضع رسول الله ﷺ. برقم (٧٤)، وابن حبان في صحيحه (١٤: ٣٣٤) في ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن يحيى بن عقيل لم يرَ أحدًا من الصحابة. برقم (٦٤٢٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤: ٢٠١) في كتاب البر والصلة والأدب/ باب استحباب العفو والتواضع. برقم (٢٥٨٨).

وهذا أنس يُخبر: أنَّ امرأةً كان في عقلها شيءٌ، فقالت: يا رسول الله ! إنَّ لي إليك حاجة ؟ فقال: يا أم فلان !انظُري أي السِّكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطُّرق، حتى فرغت من حاجتها[1].

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناءٍ إلا غمس يده فيها، فربما جاءه في الغداة الباردة، فيغمس يده فيها[2].

فظهر بهذه الأمثلة ما كان عليه الصَّلاة والسَّلام من كمال الخُلُق، وروعة التواضُع، حتى ألفه الصغير والكبير، والخادم والمرأة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤: ١٨١٢) باب قرب النبي عليه السلام من الناس وتبركهم به. برقم (٢٣٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤: ١٨١٢) باب قرب النبي عليه السلام من الناس وتبركهم به. برقم (٢٣٢٤).

الصورة الرابعة: زيارته لأصحابه وإجابته للدعوة وأكله من كل الطعام.

كان ﷺ يجيب دعوة من دعاه، ولا يتردد في ذلك وإن كان على شيءٍ يسير. فعن أنس بن مالك ﷺ : أنَّ خياطًا بالمدينة دعا رسول الله ﷺ على خبز شعير وإهالة سنخة[1]، وكان فيها قرعٌ، قال أنس: فكنتُ أرى النبي ﷺ يُعجبه القرع. قال: فكنت أقدِّمه بين يديه، فلم يزل القرع يعجبني منذ رأيته يعجبه ﷺ [2].

وكذا زيارته لذلك الغلام يهودي الذي كان يخدمه (كما سبق) ، حيث مرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم» ؟! فنظر إلى أبيه - وهو عنده - فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: « الحمد لله الذي أنقذه من النار»[3].

---

(١) إهالة سنخة: كل شيء من الأدهان مما يؤتدم به إهالة، وقيل: هو ما أذيب من الإلية والشحم، وقيل: الدسم الجامد. والسَّنِخة: المتغيرة الريح. انظر النهاية (ص٥٤)، و(ص٤٤٨).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢: ١٠٣) ذكر إباحة إجابة المرء إذا دعي على الشيء الطفيف. برقم (٥٢٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١: ٤٥٥) في كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي ومات، هل يُصلى عليه، وهل يُعرض على الصبي الإسلام. برقم (١٢٩٠).

ففي هذه الصورة المعبرة دليل على مبلغ تواضعه في دعوته، حيث زار هذا الغلام اليهودي، ودعاه للإسلام، ثم فرحه ﷺ بإسلامه، مما يدلُّ على أنه يُحبُّ الخير للنَّاس كلُّ النَّاس.

الصورة الخامسة: خدمته لأهله في بيته.

كان ﷺ في بيته بشرًا كغيره، يقوم على حاجات نفسه، وربما ساعد أهله في شؤونهم، وهو في هذا يضرب المثل والقدوة للناس بقوله وبفعله: «خيرُكُم خيرُكُم لأهله وأنا من خيركم لأهلي» (١).

قال الأسود: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصَّلاةُ، خرج إلى الصَّلاة(٢).

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٩: ٤٩١) ذكر الزجر عن ضرب النساء إذ خير الناس خيرهم لأهله. برقم (٤١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١: ٢٣٩) في كتاب الأذان/ باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج. برقم (٦٤٤).

وفي رواية قالت: كان رسول الله ﷺ يخصِفُ نعله، ويَخيطُ ثوبه، ويعملُ في بيته كما يعمل أحدكم في بيته[١].

وفي رواية عنها: ما كان إلا بشرًا من البشر: كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه[٢].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤: ٣٥١) ذكر البيان بأن المصطفى ﷺ كان يكون في مهنة أهله عند دخوله بيته. برقم (٦٤٤٠).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢: ٤٨٨) ذكر ما يستحب للمرء أن لا يأنف من العمل المستحقر في بيته بنفسه وإن كان عظيما في أعين البشر. برقم (٥٦٧٥). والبغوي في الأنوار في شمائل النبي المختار (١: ٣٠١/ برقم ٣٩٠).

المبحث الثالث
كرمه وسخاؤه وجوده

كان جوده ﷺ مضرب المثل؛ فلم يعرف العرب في تاريخهم رجلاً أكرم منه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ إذ كان يؤثر على نفسه، ولا يلتفت إلى الدنيا، وهذا غاية الكرم والسخاء.. فعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجودَ النَّاسِ، وكان أجودُ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاهُ جبريلُ، وكان يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ فيُدارسُهُ القُرآنَ، فلرسُول الله ﷺ أجودُ بالخير من الرِّيح الْمُرسلةِ[1].

وعن عائشة (رضي الله عنها)، قالت: كان رسول الله ﷺ يقبلُ الهديَّة ويُثيبُ عليها[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١: ٦) في كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. برقم (٦). ومسلم في صحيحه (٤: ١٨٠٣) في كتاب الفضائل / باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة. برقم (٢٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢: ٩١٣) في كتاب الهبة وفضلها/ باب المكافأة في الهبة. برقم (٢٤٤٥).

وعن جابر بن عبد الله قال: ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قطُّ فقال: لا[١].

ولكرمه وجوده مظاهر كثيرة نختار منها الصُّور التالية:

الصورة الأولى: موقفه مع رجل حديث عهد بالإسلام.

عن أنس قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاهُ، قال: فجاءهُ رجلٌ فأعطاهُ غنمًا بين جبلين، فرجعَ إلى قومه، فقال: يا قوم! أسْلمُوا؛ فإنَّ محمدًا يُعطي عطاءً، لا يَخْشَى الفَاقَةَ[٢].

وفي رواية أخرى عن أنس: أن رجلا سأل النبي ﷺ غنمًا بين جبلين، فأعطاهُ إيَّاه فأتى قومه، فقال: أي قوم! أسلِمُوا فواللهِ إنَّ محمدًا ليُعطي عطاءً ما يخافُ الفقْرَ. فقال أنس: إن كان الرجلُ ليُسلِمُ ما

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤: ١٨٠٥) في كتاب الفضائل / باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا وكثرة عطائه. برقم (٢٣١١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤: ١٨٠٥) في كتاب الفضائل / باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال: لا ، وكثرة عطائه. برقم (٢٣١٢).

يُرِيدُ إلا الدُّنيا، فما يُسلِمُ حتَّى يكُونَ الإسْلامُ أحبَّ إليه من الدُّنيا وما عَلَيهَا[1].

الصورة الثانية: قصة إسلام صفوان بن أمية.

كان صفوان بن أمية من سادات قريش، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة فرَّ خوفًا منه، فأرسل في ردِّه وأمَّنه، فعن مالك، عن ابن شهاب: أنه بلغه أنَّ نساءً كُنَّ في عهد رسول الله ﷺ يُسلِمن بأرضِهنَّ وهُنَّ غير مُهاجراتٍ، وأزواجهن حين أسلمن كفَّارٌ، منهنَّ بنت الوليد بن المغيرة، وكانت تحت صفوان بن أمية، فأسلمت يوم الفتح، وهرب زوجُها صفوان بن أمية من الإسلام، فبعث إليه رسول الله ﷺ ابن عمه وهب بن عمير برداء رسول الله ﷺ أمانًا لصفوان بن أمية، ودعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وأن يقدمَ عليه، فإن رضيَ أمرًا قبله، وإلا سيَّره شهرين، فلمَّا قدم صفوان على رسول الله ﷺ بردائه، ناداه على رؤوس

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤: ١٨٠٥) في كتاب الفضائل / باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا ، وكثرة عطائه. برقم (٢٣١٢).

النَّاس، فقال: يا محمد ! إنَّ هذا وهب بن عمير جاءني بردائك، وزعم أنَّك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإلا سيَّرتني شهرين، فقال رسول الله ﷺ : « أنزل أبا وهب ! » فقال: لا والله لا أنزل حتَّى تُبيِّن لي، فقال رسول الله ﷺ : «بل لك تسير أربعة أشهر» فخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن بحُنين، فأرسل إلى صفوان بن أمية يستعيرهُ أداةً وسلاحًا عنده، فقال صفوان: أطوعًا أم كرهًا، فقال: «بل طوعًا» فأعاره الأداة والسِّلاح التي عنده، ثم خرج صفوان مع رسول الله ﷺ ، وهو كافرٌ فشهد حُنينًا والطَّائف، وهو كافرٌ[1].

وروى مسلم[2]: عن ابن شهاب، قال: غزا رسول الله ﷺ غزوةَ الفتح (فتح مكَّة)، ثمَّ خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلُوا بحنين، فنصر اللهُ

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢ : ٥٤٣) في كتاب النكاح/ باب نكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله. برقم (١١٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤ : ١٨٠٥) في كتاب الفضائل / باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال: لا ، وكثرة عطائه. برقم (٢٣١٣).

دينَهُ والمسلمينَ، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذٍ صفوان بن أميَّة مئةً من النَّعم، ثم مئةً، ثم مئةً.

قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب؛ أنَّ صفوان قال: والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني وإنه لأبغضُ النَّاس إليَّ، فما بَرِحَ يُعطيني حتى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ.

وهذا الموقف الكريم منه عليه الصَّلاة والسَّلام، كان سببًا في إسلام صفوان وإنقاذه من النَّار، وقد كانت له مواقف مشهودة مأثورة بعد ذلك في فتوح الشَّام.

الصورة الثالثة: موقفه من غنائم حنين.

هزم الله هوازن وثقيف في غزوة حُنين، وبلغت غنائم حنين مبلغًا عظيمًا: ستة آلاف من السبي، ومن الإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، فاستأنى رسول الله ﷺ بالسبي أن يقدم عليه وفدهم[1].

(١) انظر الطبقات الكبرى (٢: ١٥٢).

وفي هذا دليلٌ على أنه ﷺ كان يحبُّ إسلامهم، حيث لم يبادر بقسمة الغنائم، ثم إنه بعد ذلك بدأ بالأموال فقسمها وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس: فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومئة من الإبل، قال: ابني يزيد، قال: أعطوه أربعين أوقية ومئة من الإبل، قال: ابني معاوية، قال: أعطوه أربعين أوقية ومئة من الإبل، فأعطاه إياها. وأعطى حكيم بن حزام مئة من الإبل، ثم سأله مئةً أخرى، فأعطاه إياها. وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مئة من الإبل. وأعطى أسيد بن جارية الثقفي مئة من الإبل. وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين بعيرًا. وأعطى مخرمة بن نوفل خمسين بعيرًا. وأعطى الحارث بن هشام مئة من الإبل. وأعطى سعيد بن يربوع خمسين من الإبل. وأعطى صفوان بن أمية مئة من الإبل. وأعطى قيس بن عدي مئة من الإبل. وأعطى عثمان بن وهب خمسين من الإبل. وأعطى سهيل بن عمرو مئةً من الإبل. وأعطى حويطب بن عبد العزى مئةً من الإبل. وأعطى هشام بن عمرو

العامري خمسين من الإبل. وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مئةً من الإبل. وأعطى عيينة بن حصن مئةً من الإبل. وأعطى مالك بن عوف مئةً من الإبل. وأعطى العباس بن مرداس أربعين من الإبل.

فقال في ذلك شعرًا، فأعطاه مئةً من الإبل، ويقال: خمسين، وأعطى ذلك كله من الخمس[1].

قلت: قصة عباس بن مرداس في مسلم[2].. عن رافع بن خَديج، قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مئة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ❖ بين عيينة والأقرع
فما كان بدر ولا حابس ❖ يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما ❖ ومن تخفض اليوم لا يرفع

(١) انظر الطبقات الكبرى (٢: ١٥٢).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢: ٧٣٧) في كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمان. برقم (١٠٦٠).

قال: فأتم له رسول الله ﷺ مئة.

والحكمة في إعطائه لهؤلاء الزعماء ظاهرة في قوله ﷺ للأنصار، عندما عتبوا عليه ﷺ أنه لقي قومه فأعطاهم وترك الأنصار. فيما يرويه أنس بن مالك: أن أناسًا من الأنصار، قالوا يوم حنين، حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يُعطي رجالا من قريش المئة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله يُعطي قريشًا ويترُكنا وسُيوفنا تقطُرُ من دمائهم !! قال أنس بن مالك: فحدث ذلك رسول الله ﷺ من قولهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قُبَّة من آدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم ؟! » ، فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناسٌ منا حديثة أسنانهم، قالوا: يغفر الله لرسوله يُعطي قريشًا ويترُكنا وسُيوفنا تقطرُ من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ : فإنِّي أعطي رجالاً حديثي عهد بكُفرٍ أتألَّفُهم، أفلا ترضون أن يذهب النَّاس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول

الله ؟!! فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبُون به: فقالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا[١].

ثم لم يلبث ﷺ أن قدم عليه وفد هوازن مُسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: « أحبُّ الحديث إلي أصدقُهُ، فاختاروا إحدى الطَّائفتين: إما السَّبيُ، وإمَّا المال، وقد كنت استأنيت بهم».

وقد كان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلمَّا تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير رادٍ إليهم إلا إحدى الطَّائفتين، قالوا: فإنَّا نختارُ سبينا، فسأل النَّاس أن يعيدوا لهم سبيهم فأعادوه[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١١٤٧) باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه. برقم (٢٩٧٨)، ومسلم في صحيحه (٢: ٧٣٣) في كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه. برقم (١٠٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٢: ٨١٠) في كتاب الوكالة/ باب إذا وهب شيئا لوكيل أو شفيع قوم جاز لقول النبي ﷺ لوفد هوازن حين سألوه المغانم فقال النبي ﷺ نصيبي لكم برقم (٢١٨٤).

وهكذا ظهرت حكمته ﷺ في تقسيم هذه المغانم؛ إذ أصبح هؤلاء المؤلفة قلوبهم من قادة جيوش المسلمين في الفتوحات في عهد أبي بكر وعمر ، فمن ينسى مواقف عكرمة وصفوان وأبي سفيان بن حرب، وابنه يزيد بن أبي سفيان، في معارك اليرموك وفتوحات الشام.

الصورة الرابعة: موقفه من الأعراب حديثي الإسلام.

لما نظر بعض الأعراب بجفائهم المعهود إلى قسمة النبي ﷺ لمغانم حنين، وخفيت عليهم الحكمة من ذلك، قال أحدهم فيما يرويه جابر بن عبد الله قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة[1] منصرفه من حنين ، وفي ثوب بلال فضة ، ورسول الله ﷺ يقبض

(١) الجعرانة: (بكسر الجيم وكسر العين المهملة وتشديد الراء) وفيها رواية أخرى وهي (كسر الجيم وسكون العين وتخفيف الراء) : مكان بين مكة والطائف، يقع شمال شرقي مكة في صدر وادي سرِف، ولا زال الاسم معروفا .. وقد اتخذها الناس مكانًا للإحرام بالعمرة اقتداءً باعتمار الرسول ﷺ منها بعد غزوة الطائف. انظر المعالم الأثيرة (ص٩٠).

منها يُعطي الناس، فقال: يا محمد ! اعدل، قال: « ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل، لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ». فقال عمر بن الخطاب ﷺ : دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق ، فقال : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنّي أقتل أصحابي»[١].

وضايقه الأعراب و ازدحموا عليه وهو يقسم الغنائم، وألحوا عليه في ذلك، حتى اضطروه إلى سَمُرة فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ ، فقال: « أعطُوني ردائي فلو كان عدد هذه العضاه نعَمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا»[٢].

وهذا أعرابي في موقف آخر يرويه أنس بن مالك، قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداءٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبذه بردائه جبذة شديدة، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثّرت بها حاشية الرداء؛ من شدة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١٣٢١) في كتاب المناقب/ بابا علامات النبوة برقم (٣٤١٤)، ومسلم في صحيحه (٢: ٤٧٠) في كتاب الزكاة/ باب ذكر الخوارج وصفاتهم برقم (١٠٦٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١١٤٧) برقم (٢٩٧٩).

جبذته، ثم قال: يا محمد ! مُر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثمَّ أمر له بعطاء[1].

الصورة الخامسة: موقفه من الرجل الذي سأله البردة.

عن سهل بن سعد ﷺ قال جاءت امرأة ببُردة ـ قال: أتدرون ما البردة، فقيل له: نعم هي الشملة منسوج في حاشيتها ـ قالت: يا رسول الله !إني نسجتُ هذه بيدي أكسوكها، فأخذها النبي ﷺ مُحتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنَّها إزاره، فقال رجل من القوم: يا رسول الله !أكسنيها، فقال:« نعم » ، فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت سألتها إياه، لقد علمت أنَّه لا يردُّ سائلاً، فقال الرجل: والله ما سألتُه إلا لتكون كفني يوم أموت. قال سهل: فكانت كفنه[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢ : ٦٧٣) في كتاب الزكاة/ باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة برقم (١٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢ : ٧٣٧) في كتاب البيوع/ باب ذكر النساج برقم (١٩٨٧).

الفصل الثاني

شخصيته ﷺ القيادية وأثرها في نشر دعوة الإسلام

المبحث الأول
شجاعته وقوة بأسه

تعدُّ الشجاعة من الأخلاق الفاضلة، والخلال الشَّريفة التي تميَّز بها النبي ﷺ، وهي من لوازم القيادة، ولا أدلَّ على ذلك من تكليف الله ﷻ له بالقتال لوحده، وتحريض المؤمنين فحسب ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٨٤].

وقد شهد له علي ﷺ بالشجاعة، فقال: كنَّا إذا حمي البأس ولقي القومُ القومَ اتَّقينا برسول الله ﷺ، فلا يكون أحد منَّا أدنى إلى القوم منه[1].

ونكتفي بذكر بعض مظاهر شجاعته، من خلال الصور التالية:

الصورة الأولى: موقفه من كفار قريش عندما آذوه.

عن عروة، عن عبد الله بن عمرو، قال: قلت ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: قد حضرتهم، وقد

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢: ١٥٥/ برقم ٢٦٣٣)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

اجتمع أشرافهم في الحِجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قطُّ لسفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم! أو كما قالوا، فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتَّى استلم الرُّكن، فمرَّ بهم طائفًا بالبيت، فلمَّا أن مرَّ بهم غمزوه ببعض القول، قال: وعرفت ذلك في وجهه، ثمَّ مضى ﷺ، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى ﷺ، ومرَّ بهم الثالثة غمزوه بمثلها، ثم قال:« أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمدٍ بيده لقد جئتكم بالذبح »، قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا لكأنَّما على رأسه طائر واقع، حتَّى إنَّ أشدَّهم فيه وطأة قبل ذلك يتوقَّاه بأحسن ما يجيب من القول، حتَّى إنَّه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا، فوالله ما كنت جهُولاً، فانصرف رسول الله ﷺ، حتَّى إذا كان من الغد، اجتمعوا في الحِجر، وأنا معهم فقال

بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه حتَّى إذا بادءكم بما تكرهون تركتموه، وبينا هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ، فوثبوا إليه وثبة رجُلٍ واحدٍ، وأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: « نعم أنا الذي أقول ذلك »، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، وقال: وقام أبو بكر الصديق ﷺ دونه، يقول: وهو يبكي أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله، ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيتُ قريشًا بلغت منه قطُّ[1].

وهذا الموقف ينبئ عن شجاعته ﷺ ، ووقوفه في وجه قريشٍ كافَّة.. وتحمُّله الأذى في سبيل إبلاغ دعوته.

الصورة الثانية: موقفه عند سماع صوت بالمدينة.

عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ أشجع النَّاس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناسٌ قبل الصَّوت، فتلقَّاهم رسول الله ﷺ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤: ٥٢٦) ذكر بعض أذى المشركين رسول الله ﷺ عند دعوته إياهم إلى الإسلام. برقم (٦٥٦٧).

راجعًا، وقد سبقهم إلى الصَّوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري، في عنقه السَّيف، وهو يقول:« لم تُراعوا! لم تُراعوا ! » . قال: «وجدناه بحرًا - أو إنَّه لبحر - » ، قال: وكان فرسًا يبطّأ[1].

الصورة الثالثة: موقفه في غزوة أحد.

أصيب رسُول الله ﷺ في هذه الغزوة عدَّة إصابات، ومع ذلك لم يتزحزح عليه الصَّلاة والسَّلام من موقفه، وقتل بين يديه جماعة من الأنصار، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، فلمَّا رهقوه، قال: « من يردُّهم عنَّا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة» فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتَّى قُتل، ثمَّ رهقوه أيضًا، فقال: « من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة» فتقدَّم رجلٌ من الأنصار، فقاتل حتَّى قتل، فلم يزل كذلك حتَّى قُتل السَّبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « ما أنصفنا أصحابنا» [2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤: ١٨٠٢) في كتاب الجهاد والسير/ باب في شجاعة النبي عليه السلام وتقدمه للحرب. برقم (٢٣٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣: ١٤١٥) في كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة أحد. برقم (١٧٨٩).

وسُئل سهل بن سعد عن جرح رسول الله ﷺ، فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكُب الماء، وبما دووي، قال: كانت فاطمة (عليها السلام) بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعلي بن أبي طالب يسكُب الماء بالمجنِّ[1]، فلما رأت فاطمة أنَّ الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم، وكسرت رباعيته يومئذٍ، وجرح وجهه وكسرت البيضة على رأسه[2].

الصورة الرابعة: موقفه في غزوة حنين.

عن العباس بن عبد المطلب ﷺ، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فلزمنا رسول الله ﷺ فلم نفارقه، وهو على بغلة شهباء، وربما قال: بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة

(١) المجنُّ: هو التُّرس، لأنه يواري حامله؛ أي: يستره، والميم زائدة. انظر النهاية لابن الأثير (ص١٧٠)، (ص٨٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤: ١٤٩٦) في باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد. برقم (٣٨٤٧).

الجـذامي[1]، فلمَّـا التقـى المـسلمون والكفَّـار ولى المسلمون مُدبرين، وطفق رسول الله ﷺ يركضُ على بغلته قبل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسـول الله ﷺ أكفُّهـا، وهـو لا يـألُو يُـسرع نحـو المشركين، وأبو سفيان بن الحارث آخذٌ بغرز رسول الله ﷺ، فقـال رسـول الله ﷺ: يـا عبـاس! نـاد يـا أصحاب السَّمُرة! وكنت رجلا صيِّتًا، وقلت بأعلى صوت: يا أصحاب السَّمُرة! فوالله لكأن عطفتهم حـين سمعـوا صـوتي عطفـة البقـر علـى أولادهـا، يقولون: يـا لبيك يـا لبيك! فأقبل المسلمون فاقتتلوا هم والكفار، فنادت الأنصار: يا معشر الأنصار! ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنادوا:

---

(١) فروة بن نفاثة الجُذامي، ويقال: ابن عمرو بن النافرة، من بني نُفاثة. ملك بعض الشام في الجاهلية (بين خليج العقبة وينبع)، وعلى من كان حوالي معان من العرب، ولما ظهر الإسلام بمكة والمدينة، بعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء، فعلم بذلك الروم وبعثوا له الحارث بن أبي شمر الغساني، فاعتقله وصلبه بفلسطين. انظر تاريخ دمشق (٢٥: ١٨٨)، الوثائق السياسية (ص١٢٥ ـ ١٢٦)، الأعلام (٥: ١٤٣).

يا بني الحارث بن الخزرج ! قال: فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم ثمَّ قال رسول الله ﷺ : « هذا حين حمي الوطيس » ، ثم أخذ رسول الله ﷺ حُصيات فرمى بهنَّ وجوه الكفَّار[1].

وقال رجل للبراء بن عازب (رضي الله عنهما): أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟! قال: لكنَّ رسول الله لم يفر؛ إنَّ هوازن كانوا قومًا رُماةً، وإنَّا لما لقيناهم، حملنا عليهم، فانهزموا، فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسِّهام، فأما رسول الله ﷺ فلم يفر، فلقد رأيته وإنَّه لعلى بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول: « أنا النبي لا كذب ! أنا ابن عبد المطلب»[2].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (١٥: ٥٢٣) في ذكر العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه. برقم (٧٠٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١٠٥١) في كتاب الجهاد والسير/ باب من قاد دابة غيره في الحرب برقم (٢٧٠٩) ، ومسلم في صحيحه (٣: ١٤٠٠) في المغازي/ باب في غزوة حنين. برقم (١٧٧٦).

الصورة الخامسة: موقفه في أحد من أبي بن خلف.

ذكر أهل الأخبار والسِّير أنَّ أبيَّ بن خلف كان يتوعد الرسول ﷺ بمكة بأنه سيقتله يومًا ما، فيقول الرسول ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله».

فلمَّا كان يوم أحد بعد الهزيمة، نهض المسلمون برسول الله ﷺ الشعب، معه علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، والحارث بن الصِّمة، في رهط من المسلمين، فلمَّا أسند رسول الله ﷺ في الشعب، أدركه أبي بن خلف، وهو يقول: أين محمد ؟! لا نجوت إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منَّا ؟ قال: « دعوه » ، فلمَّا دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمة، قال: يقول بعض النَّاس: فيما ذُكر لي فلمَّا أخذها رسول الله ﷺ انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر، إذا

انتفض بها ثمَّ استقبله، فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ[١] منها عن فرسه مرارًا.

وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة، فيقول: يا محمد إن عندي العود أعلفه كل يوم فرقًا من ذرة، أقتلُك عليه، فيقول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله»، فلمَّا رجع إلى قريش، وقد خدشه في عنقه خدشًا غير كبير فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد، قالوا: ذهب والله فؤادك والله إن بك بأس! قال: إنه قد كان بمكة قال لي: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني، فمات عدو الله بسَرِف[٢]، وهم قافلون به إلى مكة[٣].

---

(١) تدأدأ: يجوز أن يكون (تدهده)، فقلبت الهاء همزة؛ أي: تدحرج وسقط. انظر النهاية لابن الأثير (ص٢٩٥).

(٢) سرِف: (بفتح أوله، وكسر ثانية، بعده فاء)ولا يدخله التعريف: وادٍ متوسط الطول من أودية مكة، يأخذ مياه ما حول الجعِرانةِ - شمال شرقي مكة - ثم يتجه غربًا، فيمر على اثني عشر كيلاً، شمال مكة. انظر المعالم الأثيرة (ص١٣٩).

(٣) انظر السيرة لابن هشام (٤: ٣٣)، وتاريخ الطبري (٢: ٦٧).

وهكذا باء بالخسران يوم أن قتله النبي ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله»[١]. وعن ابن عباس نحوه[٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤: ١٤٩٦) في باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد برقم (٣٨٤٥).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤: ١٤٩٦) في باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد برقم (٣٨٤٦).

المبحث الثاني
عفـــوه عنـــد المقـــدرة

العفو هو ترك المؤاخذة عند القدرة، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فامتثل عليه الصَّلاة والسَّلام لأمر ربِّه، في مواقف كثيرة في سيرته ﷺ، نذكر منها الصور التالية:

الصورة الأولى: موقفه من تمثيل قريش بشهداء أحد.

عن أبي العالية، قال: حدثني أبي بن كعب، قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وسبعون، ومنهم ستة فيهم حمزة، فمثَّلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا لنُربينَّ[1] عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: فحسب ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

(١) لنُربينَّ: لنزيدنَّ ولنضاعفنَّ. انظر النهاية لابن الأثير (ص٣٤٤).

فقال رجل: لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله ﷺ: « كفوا عن القوم غير أربعة »[١].

فأخذ عليه الصَّلاة والسَّلام بمبدأ العفو، ولم يقتصَّ من المشركين عندما انتصر عليهم.. مع أنَّ الله قد أباح لهم ذلك، ولكن اختار عليه الصلاة والسلام الأفضل: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

وعندما قدم عليه قاتل حمزة، قال: « أنت وحشي» ؟. قلت: نعم، قال: « أنت قتلت حمزة» ؟ قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: « فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني»؟ . وقبل منه إسلامه، ولم يؤاخذه بما صنع.

وعفا عن هند بنت عتبة، وبايعته فيمن بايع من النساء، وهي منقبة، وقبل إسلامها، مع ما صنعته بحمزة ﷺ، وقالت: يا رسول الله ! ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلُّوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢ : ٢٣٩) في ذكر الإخبار عما يجب على المرء من استعمال العفو وترك المجازاة على الشر بالشر. برقم (٤٨٧).

خباء أحب إلي أن يعزُّوا من أهل خبائك، قال: وأيضًا والذي نفسي بيده[١].

الصورة الثانية: موقفه من غورث بن الحارث حين أراد قتله.

عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما): أخبره أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلمَّا قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه[٢]، فنزل رسول الله ﷺ وتفرَّق النَّاس في العضاه يستظلُّون بالشَّجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرة فعلَّق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالسٌ، فقال رسول الله ﷺ: « إنَّ هذا اخترط سيفي - وأنا نائم - فاستيقظت وهو في يده صلتًا » فقال لي:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١٣٩٠) في كتاب المناقب/ باب ذكر هند بنت عتبة بن ربيعة رضي الله عنها برقم (٣٦١٣)، ومسلم في صحيحه (٣: ١٣٣٩) في كتاب الأقضية/ باب قضية هند برقم (١٧١٤).

(٢) العضاة: شجر أم غيلان، وكل شجر عظيم له شوك. الواحدة: عِضةٌ بالتاء، وأصلها عِضهة، وقيل: واحدته عِضاهه، وعَضهت العِضاة: إذا قطعتها. انظر النهاية لابن الأثير (ص٦٢٣).

من يمنعك مني ؟ قلت: « الله ! فها هو ذا جالس » ، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ [١].

وهذا مصداق للعناية الإلهية له ﷺ فقد قال تعالى وجل ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ودلت هذه القصة على ثقته بربه سبحانه وتعالى وأنه يحميه كما وعده، ثم يأتي فيها دليل على عفوه وعدم مجازاته بالسيئة.

الصورة الثالثة: موقفه من بني المصطلق.

حيث بلغ النبي ﷺ أنَّ سيدهم الحارث بن ضرار يجمعُ لحربه، فخرج إليه في سبعمئة من المسلمين، فأظفره الله بهم على ماء يقال له: المريسيع، فلم يفلت منهم أحد ما بين قتيل وأسير، واستاقوا إبلهم وأغنامهم غنائم[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤: ١٥١٥) في كتاب المغازي/ باب غزوة ذات الرقاع وهي غزوة محارب خصفة من بني ثعلبة من غطفان، فنزل نخلا وهي بعد خيبر برقم (٣٩٠٥).

(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٤٣١ ـ ٤٣٤).

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: لما أصاب رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث (رضي الله عنها) في سهم ثابت بن قيس بن شماس ﷺ أو لابن عم له، قال: فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حُلوة ملاحة، لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينُه على كتابتها قالت: فو الله ما هو إلا أن رأيتها على باب الحُجرة فكرهتها، وعرفتُ أنَّه سيرى منها ما رأيتُ، فقالت: يا رسول الله ! أنا جُويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار سيِّدُ قومه، وقد أصابني من الأمر ما لم يخف عليك، فوقعت في السَّهم لثابت أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتُ رسول الله ﷺ أستعينه على كتابتي، قال: « فهل لك في خير من ذلك »، قالت: ما هو يا رسول الله ؟! قال: « أقضي كتابتك وأتزوجك »، قالت: نعم، قال: « قد فعلت »، وخرج الخبر في الناس: أنَّ رسول الله ﷺ تزوَّج جُويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما في أيديهم من سبايا بني المصطلق، فلقد أعتق

تزويجه إيَّاها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فلا نعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها[١].

فكان هذا التصرف النبيل منه ﷺ في إكرام هذه المرأة سببًا في العفو عن قومها كلهم.

فلو أراد النبي ﷺ أن يصطفيها لحسنها، لفعل قبل قسمة الغنائم؛ ولكن الزواج منها كان لأمر أبعد من ذلك وأسمى، وهو الطمع في إسلام قومها؛ وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعز الإسلام.. إنه الحكمة الدينية البعيدة، وليست الغرض النفسي القريب[٢].

الصورة الرابعة: موقفه من عبد الله بن أبي بن سلول.

كان عبدالله بن أبي بن سلول مُنافقًا معلوم النفاق، ولكنه كان من سادات الخزرج، وله مواقف سيئة من الرسول ﷺ، وكان يُداريه، رغم

(١) أخرجه ابن الجارود في المنتقى (ص١٧٦/ برقم ٧٠٥)، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٩: ٣٦١) ذكر الإباحة للإمام أن يزوج بالمكاتبة إذا جعل صداقها أداء ما كوتبت عليه برقم (٤٠٥٤).

(٢) صور وعبر من الجهاد النبوي (ص٢٠٠).

موقفه في غزوة أحد حيث رجع بثلاثمئة من الجيش، معترضًا على قرار القتال خارج المدينة[١].

وتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام عند انسحابهم، يناشدهم عدم خذلان نبيهم، وأنزل الله في ذلك الحوار قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۖ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

وما زالت مواقفه السيئة، حتى كانت غزوة المريسيع[٢]، حدثت حادثة الإفك المشهورة، وكان له فيه أكبر الدور ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٣٨٢).

(٢) المُريسيع: (بالضم ثم الفتح وياء ساكنة ثم سين مهملة مكسورة وياء أخرى، وآخره عين مهملة) كأنه تصغير المرسوع: وهو الذي انسلقت عينه من السهر. انظر المعالم الأثيرة (ص٢٥١).

لَكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١ ـ ٢٠].

وله موقف آخر في هذه الغزوة يرويه جابر بن عبد الله، قال: كنَّا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فقال رسول الله ﷺ: « ما بال دعوى الجاهلية »، قالوا: يا رسول الله! كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: « دعوها فإنها منتنة » فسمعها عبد الله بن أبي، فقال: قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، قال: عُمر دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: « دعه لا يتحدَّث النَّاسُ أنَّ محمدًا يقتل أصحابه»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١٢٩٦) في كتاب المناقب/ باب ما ينهى من دعوى الجاهلية. برقم (٣٣٣٠)، مسلم في صحيحه (٤: ١٩٩٨) في كتاب البر والصلة والأدب/باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما برقم (٢٥٨٤).

وإنما أبى ﷺ أن يقتله؛ لئلا تتأثر الدعوة إلى الإسلام، ويسبب ذلك فتنةً بين المسلمين.

ولما بلغ عبدالله بن عبدالله بن أبي ما قاله والده، أتى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله ! إنه بلغني أنك تُريد قتل عبدالله بن أبي؛ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً، فمُرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج، ما كان لها من رجل أبر بوالده منِّي، وإنِّي أخشى أن تأمر به غيري، فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، وأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ».

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت اقتله لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته».

قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[١].

الصورة الخامسة: موقفه من قريش يوم الفتح.

لما اتجه النبي ﷺ لفتح مكة أصاب قريش ما أصابها من الرعب والخوف، فتلقاه جمع منهم بالطريق وأسلموا قبل دخوله عليهم عنوةً، منهم: أبو سفيان بن حرب في آخرين، ففتح الله عليه ودخل مكة من أعلاها من جهة كداء، خاشعًا شاكرًا يقرأ سورة الفتح يرجع قراءتها وهو على راحلته[٢].

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ لما دخل مكة سرح الزبير بن العوام وأبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد على الخيل، وقال: يا أبا هريرة اهتف بالأنصار، قال: « اسلكوا هذا الطريق فلا يشرفنَّ لكم أحد إلا أنمتموه»، فنادى مناد لا قريش بعد

(١) السير النبوية لابن هشام (٤: ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، وانظر مجمع الزوائد (٩: ٣١٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤: ١٥٦٠) في كتاب المغازي/ باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح. برقم (٤٠٣١).

اليوم، فقال رسول الله ﷺ : «من دخل دارا فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن »، وعمد صناديد قريش، فدخلوا الكعبة، فغص بهم، وطاف النبي ﷺ وصلى خلف المقام، ثم أخذ بجنبي الباب، فخرجوا فبايعوا النبي ﷺ على الإسلام.

وفي رواية: ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب، فقال: ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا: نقول: ابن أخ وابن عم حليم رحيم، قال: وقالوا: ذلك ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ : « أقول كما قال يوسف: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ » [يوسف: ٩٢].

قال: فخرجُوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام[1].

وفي رواية لابن إسحاق[2]، قال: « ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟ » قالوا: خيرًا أخ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ.

---

(١) أخرجه الطحاوي في معاني الآثار (٣: ٣٢٥)، والبيهقي في الكبرى (٩: ١١٨/ برقم ١٨٠٥٤). وإسناده لا بأس به.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٥: ٧٤).

فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم». وفي رواية: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ولذا عرفوا في التاريخ بالطلقاء[١].

وهذا موقفٌ فريدٌ في التاريخ يدخل في مفاخر نبيِّنا الكريم ﷺ، وأمَّتنا الإسلامية؛ وبهذا فتح الدُّخول للناس في دين الله أفواجًا، ووفدت عليه العرب فيما يُعرف بعام الوفود في السنة التاسعة من كل بلاد الجزيرة العربية، وانتشر الدين الإسلامي في أرجائها[٢].

(١) انظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٥٦٩)، وسمُّوا بهذا في الصحاح. انظر صحيح البخاري. برقم (٤٠٧٨)، وصحيح مسلم برقم (١٠٥٩).

(٢) انظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٦٣٩ ـ ٦٧٣).

المبحث الثالث
بره ووفاؤه بالعهود والمواثيق

الوفاء بالعهد من شيم الفضلاء، وكرام النَّاس، وقد كان ﷺ يبرُّ ويصلُ ذوي رحمه ، ويفي لهم بحقوقهم عليه .. حتى وإن كانوا مشركين، وأخبر ﷺ أن حُسن العهد من الإيمان[1]، ويفسر ذلك ما روت لنا أم المؤمنين عائشة من صنعه مع خديجة أم المؤمنين (رضي الله عنها)، فقالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة . ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين . لما كنت أسمعه يذكرها، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنَّة من قصب، وإن كان ليذبح الشَّاةَ ثمَّ يهدي في خلتها منها[2].

وفي رواية: ما غرتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١: ٦٢/ برقم ٤٠).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥: ٢٢٣٧) في كتاب الأدب/ باب حسن العهد من الإيمان. برقم (٥٦٥٨).

النبي ﷺ يُكثر ذكرها، وربَّما ذبح الشَّاةَ ثم يُقطعها أعضاءً ثم يبعثُها في صدائق خديجة فربما قلت له: كأنه لم يكُن في الدُّنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»[١].

وعن عائشة (رضي الله عنها)، قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك فقال: «اللهمَّ هالة» قالت: فغرتُ، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشِّدقين، هلكت في الدَّهر، قد أبدلك الله خيرًا منها[٢].

وهذه المواقف تنبئ عن جانب الوفاء العظيم في شخصية رسول الله ﷺ ووفائه المنقطع النظير لأمِّ المؤمنين خديجة، التي آمنت به ووقفت معه تشدُّ أزره في دعوته، وواسته بنفسها ومالها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١٣٨٩) كتاب فضائل الصحابة/ باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها. برقم (٣٦١٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١٣٨٩) كتاب فضائل الصحابة/ باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها. برقم (٣٦١٠).

ويمكن أن نلحظ بعض جوانب هذا الوفاء المؤثرة في مسيرته الدعوية للإسلام من خلال الصُّور التالية:

الصورة الأولى: موقفه من قرابته المشركين.

من أشهر مواقف بره ما حصل منه تجاه عمه أبي طالب، إذ بقي عند رأسه وهو في النزع، وهو يقوله له: «يا عم! قل: لا إله إلا الله كلمه أشهد لك بها عند الله».

فلم يكتب الله له أن يموت على الإسلام.

ومع هذا فقد قال: «أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك». فنُهي عن ذلك[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١: ٤٥٧) في كتاب الجنائز / باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله. برقم (١٢٩٤)، ومسلم في صحيحه (١: ٥٤) في كتاب الإيمان / باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة ونسخ جواز الاستغفار للمشركين والدليل على أن من مات على الشرك فهو في أصحاب الجحيم ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل. برقم (٢٤) واللفظ له.

ومن ذلك موقفه من قرابته يوم أن أمر بدعوتهم، فعن أبي هريرة ﷺ قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النَّار، يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة! أنقذي نفسك من النار؛ فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سأبلُّها ببلالها»[(١)].

قوله: «سأبلها ببلالها»: يعني أصلها بصلتها الواجبة لها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١: ١٩٢) في كتاب الإيمان/ باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. برقم (٢٠٤).

الصورة الثانية: موقفه من القتيلين العامريين.

عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ أتاه رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان فزعموا أنهم قد أسلموا واستمدوه على قومهم فأمدهم النبي ﷺ بسبعين من الأنصار قال أنس كنا نسميهم القراء يحطبون بالنهار ويصلون بالليل فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غدروا بهم وقتلوهم فقنت شهرا يدعو على رعل وذكوان وبني لحيان[1].

وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف فلم ينبئهما بمصاب إخوتهما إلا الطير تحوم على العسكر فقال والله إن لهذه الطير لشأنًا فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم فإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية : ما ترى ؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكني ما كنت أرغب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١١١٥) في كتاب الجهاد والسير/ باب العون بالمدد. برقم (٢٨٩٩).

بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو وما كنت لتخبرني عنه الرجال ثم قاتل القوم حتى قتل، وأخذ عمرو بن أمية أسيرًا فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه فخرج، عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة[1] من صدر قناة[2] أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه في ظل هو فيه وكان للعامريين عقد مع رسول الله ﷺ وجوار فلم يعلم به عمرو بن أمية وقد سألهما حين نزلا من أنتما قالا من بني عامر فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه أصاب بهما ثأره من بني عامر لما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ فلما قدم عمرو بن أمية

(١) قرقرة : ويُقال لها: قرقرة الكُدر (بضم الكاف)، قاع قبيل خيبر مما يلي المدينة على ستة أكيال من خيبر يطؤه الطريق.انظر المعالم الأثيرة (ص٢٢٤).

(٢) قناة : واد يأتي من الطائف ويصب في الأرحضية وقرقرة الكدر، ثم يأتي بئر معاوية، ثم يمر على طرف القدُوم في أصل قبور الشهداء بأحد. انظر معجم البلدان (٤: ٤٠١ - ٤٠٢).

على رسول الله ﷺ أخبره الخبر فقال رسول الله ﷺ لئن قتلت قتيلين لأدينهما[١].

ولم يكن معه ﷺ ما يدي به هذين القتيلن، فذهب لبني النضير يستعينهم في ذلك، وكان بينهم وبين المسلمين عهد، ولكنهم أرادوا الغدر به وقتله، فأتاه الوحي، فانقلب إلى المدينة، وناجزهم بعد ذلك وأجلاهم من المدينة.. ونص على هذا البخاري بقوله: باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ قال الزهري عن عروة كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد[٢].

وهذه صورة عظيمة من صور الوفاء، حيث يُصاب رسول الله ﷺ في أصحابه، ثم يسعى لدية قتيلين مقترضًا من يهود، فلا يمهل ولا يعطل ولا يُرجئ، بل يسعى ليقترض في دفع الدية، وفاءً بما التزم - وليتصور كيف تحاك ضده وهو في أنبل طرق

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠: ٣٨٥/ برقم ٨٤١).
(٢) صحيح البخاري (٤: ١٤٧٨).

الوفاء، وصدق التعاقد - ففي هذا الوقت كان اليهود يُبيتون الغدر به، وبينه وبينهم عهد وميثاق.

يا لله للوفاء العجيب المتسامي إلى عُلا الفضيلة!! ويا لنقض العهد في أبشع صور الخِسَّة والجبن والحقارة!![1].

الصورة الثالثة: موقفه في صلح الحديبية.

انطلق رسول الله ﷺ إلى مكة يريد العمرة، وذلك بعد غزوة الأحزاب، التي أراد فيها الكفار القضاء على المسلمين، انطلق مسالمًا لا يُريد حربًا، معلنًا استعداده للمهادنة، خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته، فقال الناس:

---

(١) صور وعبر من الجهاد النبوي (ص١٦١ - ١٦٢) بتصرف.

حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء .. خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[1].

وكان كذلك فقد صالحهم النبي ﷺ على شروط لم يرضها بعض المسلمين ، ومما قال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقا ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» ، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا، قال: « إنِّي رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أو ليس كنت تحدثا أنا سنأتي البيت فنطوف به، قال: « بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام »، قال: قلت: لا . قال: « فإنك آتيه ومطوف به »[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢ : ٩٧٨) في كتاب باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط برقم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢ : ٩٧٨) في كتاب باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. برقم (٢٥٨١).

وقد سمى الله هذا الصلح فتحًا، إذ نزلت سورة الفتح منصرف النبي ﷺ من الحديبية، مفتتحةً بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٣].

نعم كان فتحًا ولم يكن ذُلاً ولا دنية، كما كان يتصور بعض كبار الصحابة، لأمور منها:

١ ـ أن هذا الصُّلح أنهى الحرب المستمرة التي بين النبي ﷺ وكفار قريش، وهذا هيَّأ المجال للدعوة الإسلامية في مواطن أخرى.

٢ ـ أن قريش اعترفت في هذا الصلح بوجود النبي ﷺ وبدولته.

٣ ـ أنه كان تمهيدًا لفتح مكة، وكسر شوكة المشركين.

٤ ـ أن النبي ﷺ تفرَّغ لليهود في المدينة، فطهرها من رجسهم.

٥ ـ فيه اعتراف بحق المسلمين بقصد البيت الحرام وأداء الشعائر فيه.

٦ - إقبال الناس على هذا الدين في ظل هذه الهُدنة؛ لأمنهم من الحروب، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة، ثم خرج في عام الفتح في عشرة آلاف[١].

الصورة الرابعة: موقفه من أبي عزة عمرو بن عبد الله الجمحي

عن أبي هريرة قال: قال أبو عزة: يوم بدر يا رسول الله ! أنت أعرف الناس بفاقتي وعيالي، وإني ذو بنات، قال: فرقَّ له ومنَّ عليه وعفا عنه، وخرج إلى مكة بلا فداء، فلما أتى مكة هجا النبي ﷺ وحرض المشركين على رسول الله ﷺ ، فأُسر يوم أحدٍ أتى به رسول الله ﷺ ، قال: وكان رسول الله ﷺ، يقول: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» [٢].

---

(١) انظر صور وعبر من الجهاد النبوي ص (٢٩٠ - ٢٩٢)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٤٩٤ - ٤٩٦).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦: ٣٢٠/ برقم ١٢٦١٨). وقال: هذا إسناد فيه ضعف وهو مشهور عند أهل المغازي. قلت: وأصل الحديث في الصحيحين دون القصة: أخرجه البخاري في (٥: ٢٢٧١) في باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين برقم (٥٧٨٢). ومسلم في (٤: ٢٢٩٥) باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين برقم (٢٩٩٨).

ونلمح في هذا ما كان عليه الصلاة والسلام من الرحمة والرأفة، ولكنه اتخذ موقف القائد الشجاع، الذي لا يمكن أن يُخدع مرتين، ويمثل هذا التربية الصارمة والشدة في موضعها.

الصورة الخامسة: موقفه من حاطب بن أبي بلتعة.

عن علي ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: « ائتوا روضة خاخ[1]؛ فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها ».

فانطلقنا تعادي بنا خيلنا، فإذا نحن بالمرأة.

فقلنا: أخرجي الكتاب ؟

فقالت: ما معي كتاب.

فقلنا: لتخرجنَّ الكتاب أو لتلقينَّ الثياب، فأخرجته من عقاصها.

---

(١) روضة خاخ: موضع بقرب حمراء الأسد من حدود العقيق. انظر المعالم الأثيرة (ص١٠٧).

فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ما هذا» ؟!

قال: لا تعجل علي يا رسول الله: إني كنت امرءًا مُلصقًا في قريش (قال سفيان: كان حليفا لهم ولم يكن من أنفسها) وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام.

فقال النبي ﷺ : «صدق».

فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق.

فقال: « إنه قد شهد بدرًا، وما يُدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [1] [الممتحنة: ١].

ونلمح في هذه القصة عفوه ﷺ عن حاطب لسابقته في الإسلام ولشهوده بدرًا، ولكن لم يمنعه ذلك من عتابه على صنيعه، وكف عنه عمر بن الخطاب الذي طالب بقتله.

ولم يكن ﷺ وهو القائد الرحيم بقاتل رجلاً له سابقة في الإسلام، فشيمته الوفاء والبر بكلِّ من ناصره.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣: ١٠٩٥) في كتاب الجهاد والسير/ باب الجاسوس وقول الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾. التجسس التبحث. برقم (٢٨٤٥). ومسلم في صحيحه (٤: ١٩٤١) في كتاب الفضائل/ باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة. برقم (٢٤٩٤) واللفظ له.

الخاتمة

الدُّرُوس والعِبَرُ

بعد الانتهاء من تدبيج هذه الكلمات اليسيرات .. يطيب لي أن ألقي الضوء على أهم الدروس والعبر المستفادة من أخلاقه ﷺ الشريفة وكيف وظفها في نشر الدين الإسلامي.

١ - أنَّ في ما لقي ﷺ من تكذيب قومه له، وما ناله منهم من أذى، عظة وعبره للدُّعاة لكي يتأسوا به ﷺ، فإذا كان هو نبي الله حصل له ما حصل، ولم يفت ذلك في عضده، فمن باب أولى أن يلقى الدعاة إلى الله البلاء والشدة، لأن حكمة الله اقتضت ألا ينتصر الدِّين إلا بتقديم التضحيات الجسام.

٢ - لقد كان في حسن معاملته ﷺ للكفار، وفرحه بإسلام من أسلم منهم، وعفوه عما بدر منهم في جاهليتهم، وعدم مؤاخذتهم بما فرط منهم، أكبر الأثر في إقبالهم على الإسلام،

وفي هذا عبرة لنا جميعًا فيما ينبغي سلوكه مع غير المسلمين في دعوتنا لهم.

٣ - لقد كان ما جُبل عليه ﷺ من جميل الأخلاق، وكريم الخصال، من صدقٍ في الوعد، وأداءٍ للأمانة، ووفاء بالعهد، سببًا لدخول كثير من النَّاس في الإسلام، وفي هذا دروس للدعاة إلى الله في وجوب التحلي بأخلاق الإسلام الذي يدعون إليه، ليكون ذلك أحرى في قبول دعوتهم.

٤- كان لتواضعه وبساطة عيشه، دليلٌ على أنَّه لم يُرد الدُّنيا وزينتها وصدَّق بفعله دعوته للنَّاس إلى العمل للآخرة، حيث كان أول العازفين عنها، فلنا فيه الأسوة الحسنة .. فأين الدعاة عن التواضع!!

٥ - مواقف النبي ﷺ وشجاعته في الحرب كانت سببًا في انتصار المسلمين على الكفَّار في مواطن كثيرة، حيث كان يثبِّتُهم ويدعو لهم، ويُشاركهُم القتال، فقويت بذلك قلوبهم، مما جعلهم يفيئون إليه، وهكذا ينبغي أن

يكون القائد المسلم شجاعًا، لا يخاف ولا يهاب.

٦- كان النبي ﷺ لا يُريد علوًا في الأرض ولا فسادًا؛ يدلُّ لذلك تواضعه حال هزيمته للكفار، حيث دخل مكة متخشعًا متواضعًا شاكرًا لله تعالى، وفي هذا درسٌ عظيم لما ينبغي أن يكون عليه المسلم، وأن لا يأخذه الكبر والبطر حال النصر، أو التفوق في أي ميدان كان.

٧- أنَّ في ما أنفقه عليه الصلاة والسَّلام من أموال في سبيل جلب الناس إلى هذا الدين، فيه دليل على أن المسلم ينبغي عليه أن يوظف ما آتاه الله من مال لخدمة هذا الدين، وألا يدَّخر وسعًا في توظيفه في أبواب الخير، وخاصةً دعوة غير المسلمين.

وفي هذه الدروس والعبر مثال لما ينبغي أن يسلكه الدعاة إلى الله في نشر دين الله، وتبليغ رسالة نبي الله محمد بن عبدالله ﷺ.. فالدين

الإسلاميُّ سلوكٌ ومثالٌ وقدوةٌ، قبل أن يكون دعوة ترغيب وترهيب.

نسأله تعالى أن يوفقنا لسلوك سبيله ﷻ والإقتداء بسنته.. إنه سميع قريب مجيب.. والله أعلم.

المصـــادر

١ ـ (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان) / المُسمَّى [المُسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولاثبوت جرح في ناقليها) / تأليف . علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (٧٣٩هـ) / تـ . شعيب الأنؤوط / مؤسسة الرسالة ـ بيروت / ط ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٢ ـ (الأدب المفرد) لمحمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)/ تـ. محمد فؤاد عبدالباقي/ دار البشائر ـ بيروت / ط ـ الثالثة (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م).

٣ـ (الأعلام) لخير الدين الزركلي/ دار العلم للملايين ـ بيروت/ ط ـ السادسة (١٩٨٤م).

٤ ـ (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) / لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (٧٢٨هـ)/ تـ. د. ناصر العقل/ مطابع العبيكان ـ الرياض/ ط ـ الأولى (١٤٠٤هـ).

٥ ـ (تاج العروس من جواهر القاموس) لأبي الفيض محمد مرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ)/ تـ. علي شيري/ دار الفكر ـ بيروت/ ط ـ ١ (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

٦ - (**تاريخ الأمم والملوك**) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)/ دار الكتب العلمية - بيروت/ ط - الأولى (١٤٠٧هـ).

٧ - (**تاريخ مدينة دمشق**) لأبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر (٥٧١هـ) / تـ. عمر غرامة العمروي/ دار الفكر - بيروت/ ط - الأولى (١٩٩٥م).

٨ - (**تفسير القرآن العظيم**)/ لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)/ دار الفكر - بيروت / (١٤٠١هـ).

٩ - (**الجامع الكبير**) لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي (٢٧٩هـ)/ تـ. أحمد شاكر وآخرين/ دار إحياء التراث - بيروت (مصورة).

١٠ - (**الجامع المُسند الصحيح المُختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيامه**) / لأمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)/ تـ. د. مصطفى ديب البغا/ دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت / ط - الثالثة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م).

١١ - (**سنن أبي داود**)/ سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي (٢٧٥هـ)/ تـ. محمد محيي الدين عبد الحميد/ دار الفكر.

١٢ - (سنن الدارمي) / الإمام أبو محمد عبداللّه بن عبدالرحمن الدارمي (٢٥٥هـ)/تـ . د . مصطفى ديب البُغا/دار القلم - دمشق/ط - ٢ (١٤١٧هـ).
١٣ - (السنن الكبرى) / للحافظ أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ) / تـ . د . عبدالغفار البنداري - وسيد كسروي حسن / دار الكتب العلمية - بيروت / ط - ١ (١٤١١هـ - ١٩٩١م).
١٤ - (السنن الكبير) / للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨هـ) / تـ . محمد عبدالقادر عطا/ مكتبة الباز - مكة المكرمة/ (١٤١٤هـ - ١٤٩٤م).
١٥ - (السيرة النبوية) / لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري / تـ د. همام سعيد ، ومحمد أبو صعيليك/ م. المنار - الأردن/ ط - الأولى (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).
١٦ - (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية) «دراسة تحليلية/ د. مهدي رزق الله أحمد/ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية/ ط - الأولى (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

١٧ ـ (شرح معاني الآثار) / لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي (٣٢١هـ) / تـ . محمد زهري النجَّار / دار الكتب العلمية ـ بيروت / ط ـ ٢ (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

١٨ـ (الشمائل النبوية) لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي (٢٧٩هـ)/ تـ. سيد عباس الجليمي/ مؤسسة الكتب ـ بيروت/ ط ـ الأولى (١٤١٢هـ).

١٩ ـ (صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة)/ د. محمد فوزي فيض الله/ دار القلم ـ دمشق/ الدار الشامية ـ بيروت/ ط ـ الأولى (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

٢٠ ـ (الطبقات الكبرى) / لكاتب الواقدي محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (ت٢٣٠هـ) / تـ . جماعة من المستشرقين الألمان / ط ـ ١ (١٩٠٣هـ) / (مصورة) دار صادر ـ بيروت.

٢١ ـ (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) / للحافظ نورالدين علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧هـ) / دار الكتاب العربي ـ بيروت / ط ـ ٣ (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).

٢٢ ـ (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة)/ للعلامة محمد حميدالله/ دار النفائس ـ بيروت / ط ـ الخامسة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٢٣ - (المستدرك على الصحيحين) / للحافظ أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ) / تـ. مصطفى عبدالقادر عطا / دار الكتب العلمية - بيروت / ط - ١ (١٤١١هـ - ١٩٩١م).

٢٤ - (مسند الإمام محمد بن إدريس الشافعي ٢٠٤هـ) / رواية أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم (٣٤٦هـ) عن ، الربيع بن سليمان المرادي (٢٧٠هـ) / دونه . أبو عمرو محمد بن جعفر بن مطر النيسابوري (٣٦٠هـ) / دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٥ - (المُسند الصحيح المُختصر من السُّنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ) / للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ) / تـ . محمد فؤاد عبدالباقي / دار الحديث - القاهرة.

٢٦ - (المعالم الأثيرة في السنة والسيرة)/ تصنيف محمد محمدي حسن شرَّاب/ دار القلم - دمشق / ط - الأولى (١٤١١هـ - ١٩٩١م).

٢٧ - (معجم البلدان) لشهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)/ دار الفكر - دار صادر - بيروت.

٢٨ - (المعجم الكبير) / للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) / تـ . حمدي عبدالمجيد السلفي / ط - الثانية.
٢٩ - (المُنتقى) / للحافظ أبي محمد عبداللّه بن علي الجارود النيسابوري (٣٠٧هـ) / تـ . السيد عبداللّه هاشم اليماني المدني / حديث أكادمي - نشاط آباد - باكستان / ط - ١ (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
٣٠ - (الموطأ) / لإمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي (١٧٩هـ) / (رواية يحيى بن يحيى الليثي)/تـ . محمد فؤاد عبدالباقي / دار الحديث - القاهرة.
٣١ - (النهاية في غريب الحديث والأثر) / لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (٦٠٦هـ)/ تـ. علي بن حسن الحلبي الأثري / دار ابن الجوزي - الدمام/ ط - الأولى (١٤٢١هـ).
٣٢ - (هذا الحبيب محمد ﷺ رسول اللّه يا مُحب) / لأبي بكر جابر الجزائري/ م. العلوم والحكم - المدينة المنورة / ط - الأولى (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

المُحتَويَات

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة	٧-١٠
تمهيد	١١-٢٠
الفصل الأول	
أخلاقه ﷺ الشَّريفة وأثرها في نشر دعوة الإسلام	٢٣
المبحث الأول : رأفته ورحمته وشفقته	٢٣
الصورة الأولى : شفقته ورحمته بعمه أبي طالب	٢٤
الصورة الثانية : شفقته ورحمته بابنته زينب وزوجها أبي العاص ...	٢٦
الصورة الثالثة : شفقته ورحمته بخادمه الغلام اليهودي ...	٢٩
الصورة الرابعة : شفقته ورحمته بقومه قريش.....	٣٠
الصورة الخامسة : رحمته وشفقته على أمته عمومًا	٣٤
المبحث الثاني: تواضعه ولين جانبه	٣٩
الصورة الأولى : من مظاهر تواضعه في دعوته ﷺ	٤٠
الصورة الثانية : عدم تميزه على أصحابه	٤٢
الصورة الثالثة : جلوسه مع الأرملة والمسكين والصغير..	٤٤
الصورة الرابعة : زيارته لأصحابه وإجابته للدعوة.....	٤٦
الصورة الخامسة : خدمته لأهله في بيته	٤٧

الموضـــــوع	الصفحة
المبحث الثالث: كرمه وسخاؤه وجوده	٤٩
الصورة الأولى : موقفه مع رجل حديث عهد بالإسلام ...	٥٠
الصورة الثانية : قصة إسلام صفوان بن أمية	٥١
الصورة الثالثة : موقفه من غنائم حنين	٥٣
الصورة الرابعة : موقفه من الأعراب حديثي الإسلام	٥٨
الصورة الخامسة : موقفه من الرجل الذي سأله البردة	٦٠
الفصل الثاني	
شخصيته ﷺ القيادية وأثرها في نشر دعوة الإسلام	٦١
المبحث الأول: شجاعته وقوة بأسه	٦٣
الصورة الأولى : موقفه من كفار قريش عندما آذوه.....	٦٣
الصورة الثانية : موقفه عند سماع صوت بالمدينة	٦٥
الصورة الثالثة : موقفه في غزوة أحد	٦٦
الصورة الرابعة : موقفه في غزوة حنين.....	٦٧
الصورة الخامسة : موقفه في أحد من أبي بن خلف	٧٠
المبحث الثاني: عفوه عند المقدرة	٧٣
الصورة الأولى : موقفه من تمثيل قريش بشهداء أحد	٧٣
الصورة الثانية : موقفه من غورث بن الحارث حين أراد قتله ..	٧٥
الصورة الثالثة : موقفه من بني المصطلق.....	٧٦
الصورة الرابعة : موقفه من عبدالله بن أبي بن سلول	٧٨

الموضـــــوع	الصفحة
الصورة الخامسة : موقفه من قريش يوم الفتح.....	٨٢
المبحث الثالث: بره ووفاؤه بالعهود	٨٥
الصورة الأولى : موقفه من قرابته المشركين	٨٧
الصورة الثانية : موقفه من القتيلين العامريين.....	٨٩
الصورة الثالثة : موقفه في صلح الحديبية	٩٢
الصورة الرابعة : موقفه من أبي عزة عمر بن عبدالله الجمحي ...	٩٥
الصورة الخامسة : موقفه من حاطب بن أبي بلتعة	٩٦
خاتمة	٩٩
المصادر.....	١٠٣
المحتويات.....	١٠٩

www.islamic-invitation.com